النفس وخلودها عند ابن سينا

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

النفس سر الله فى خلقه وآيته فى عباده ، ولغز الانسانية الذى لم يحل بعد ، وقد لا يحل يوما ما . هى مصدر المعارف المختلفة والمعلومات المتباينة ، ولكنها لم تسم إلى أن نعرف حقيقتها معرفة صادقة يقينية ؛ وهى منبع الأفكار الواضحة الجلية ، الا أن فكرتها عن ذاتها مشوبة بقدر كبير من الغموض والابهام . ومع هذا فالانسان منذ نشأته تواق إلى تعرفها جاد فى تفهمها ، ولا يزال حتى اليوم يبذل قصارى جهده فى إدراك كنهها والوقوف على أمرها . وبوده أن يعرف فى دقة ماهيتها ويدرك الصلة بينها وبين الجسم ويتبين مصيرها ومآلها . وكيف لا وهو طلعة يحب أن يعرف كل شىء ، وهو فى معرفة الأشياء المجهولة والامور المستترة أرغب . وإذا كان قد خطا خطوات فسيحة فى سبيل فهم الطبيعة وتوضيح آياتها فنفسه التى بين جنبيه أولى بالبحث والتوضيح ، هذا إلى أنه مدنى بطبعه لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن إخوانه وذويه ، ومعرفته لنفسه كثيراً ماتعينه على تفهم بنى جنسه ، وكم بذل الأخلاقيون والمربون من جهد فى تحديد الدعائم النفسية التى يقوم عليها اصلاحهم ووعظهم وتعليمهم وإرشادهم . والأديان والشرائع تخاطب النفوس قبل أن تخاطب الأبدان ، وتتجه إلى الأرواح أكثر من اتجاهها إلى الأجسام . والثواب والعقاب والمسئولية الأخلاقية والدينية بوجه عام تدعو إلى التفكير فى الروح وخلودها ومآلها بعد مفارقة البدن . ففى أحوال الانسان الفردية وظروفه الاجتماعية وأبحاثه العلمية وتعاليمه الدينية ما يدفعه إلى كشف ذلك السر الذى أودعه الله فيه والذى آمن به الناس جميعاً دون أن يروه .

لهذا كان موضوع النفس شغل الباحثين والمفكرين فى مختلف العصور ؛ وليس ثمت فيلسوف إلا أدلى فيه برأى وتعرض له بالبحث والتحليل ، وربما كان فى تاريخه ما يلخص تاريخ الفلسفة بأسرها . بيد أن ابن سينا ، فيما نعتقد ، قد عنى به عناية كبيرة لا نجدها لدى واحد من رجال التاريخ القديم والمتوسط . حقاً إن أفلاطون تحدث عن النفس فى محاورات عدة ووقف على خلودها محاورة مستقلة ؛ وكتاب أرسطو فى النفس ومؤلفاته المسماة « بالطبيعيات الصغرى » تصعد به إلى مرتبة أسمى عالم نفسى عرف فى التاريخ القديم . ولم يغفل أفلوطين أمر النفس فى تاسوعاته ، وشغل بوجه خاص بهبوطها من العالم العلوى واتصالها بالعالم السفلى ورغبتها الدائمة فى أن تعود إلى مقرها الأصلى . ولفلاسفة القرون الوسطى المسيحيين وخاصة أوغسطين وتوماس أبحاث مختلفة فى حقيقة النفس ووظائفها . إلا أن هؤلاء جميعاً لا يبدو عليهم الشغف بهذا الموضوع مثل ما شغف به ابن سينا ، فانه يعود اليه غير مرة ويقف عليه جملة رسائل مستقلة ، ويتحدث عنه فى كل كتبه الرئيسية التى وصلت إلينا . ففى كتاب القانون المعروف يبين قوى النفس المختلفة على طريقة الأطباء ويشير إلى الصلة بينها وبين الجسم [1] ، وفى الشفاء يعقد فصلا مستفيضاً يفصل فيه آراءه النفسية [2] ، وفى النجاة يلخص هذا الفصل ويصوغه فى قالب مدرسى محكم ، وفى الاشارات ينظم فى نحو عشرين صفحة عقداً من مسائل علم النفس كله درر قيمة وآيات بينة . وله تعليق على كتاب النفس لأرسطو لا يزال مخطوطاً حتى اليوم [3] ولم يقنع بهذا ، بل كتب رسالة قيمة فى القوى النفسية أهداها للأمير نوح بن منصور السامانى ، ورسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها ، وشرح هبوطها إلى الجسم وحنينها إلى مصدرها الأول فى قصيدة مشهورة . [4]

كنا نتوقع وابن سينا هو الطبيب والفيلسوف أن يستخدم طبه فى دراسة الظواهر النفسية وأن يستعين بالملاحظة والتجربة على شرحها وتوضيحها فينمى معلوماتنا ويخطو بنا إلى الامام فى سبيل هذا البحث الدقيق . ولكنه ، فيما يظهر : كان يعتقد

(١) ابن سينا ، (القانون) ، حـ ١ ص ٣٢ ـ ٣٦ (طبعه رومة)
(٢) (الشفاء) ، حـ ١ ، ٢٧٧ ـ ٢٦٨ .
(٣) (فهرست دار الكتب المصرية) ، فلسفة ، رقم ٢١٤ .
(٤) لا يفوتنا أن نشير إلى رسالة (فى القوى الانسانية وإدراكاتها) موجودة فى المجموعة المسماة : (تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات) . وقد أثبتنا من قبل ، وبيدنا الدليل القاطع . أن هذه الرسالة من عمل الفارابى
« Madkour, (La Place) 14. 128 »

أن الفصل فى مشاكل علم النفس ليس من عمل الطبيب ولا من دائرة اختصاصه ، بدليل أنه يشير فى القانون إلى بعض نقط متصلة بالنفس وقواها قد اختلف فيها الأطباء والفلاسفة ، ويصرح بأن الكلمة كلمة الآخيرين . وأن استيفاء هذه النقط إنما يتم فى كتبهم (١) والواقع أن التجارب المنظمة والابحاث العلمية الدقيقة المتصلة بالنفس أثر من آثار التاريخ الحديث وحده ، بل القرنين الأخيرين فقط ، وفى وسط طبى حظر فيه التشريح وحرم من الأدوات الحديثة لم يكن فى الامكان دراسة المخ والجهاز العصبى دراسة تجريبية كاملة . ولا نكاد نحظى بباحث بين المسلمين نحا هذا المنحى التجريبى فيما وراء ابن الهيثم الذى أدلى بآراء فى الضوء والرؤية تقترب مما جاء به فيبير (Weber) حديثا (٢) . وأما ما يذهب إليه ابن سينا من تقسيم المخ إلى مناطق تقابل قوى النفس المختلفة ومن ملاحظات فسيولوجية شتى فهو ترديد لما قال به أطباء وفلاسفة اليونان . فقد كان أمامه تراث عظيم خلفه أفلاطون وأرسطو وجالينوس وأفلوطين أفاد منه كثيراً وعول عليه التعويل كله . وإليه يرجع الفضل فى عرض هذا التراث فى صورة واضحة مهذبة لم نعهدها عند سابقيه ، وإذا كان قد فاته أن يتوسع فى دراسة المخ والظواهر النفسية دراسة تجريبية فانه لم يعنه أن يفتن فى البرهنة على وجود النفس وخلودها افتناناً يستلفت النظر ويستحق التقدير . ولعل ذلك راجع إلى أن النزعة الميتافزيقية والفلسفية البحتة غلبت عليه فى كل أبحاثه النفسية .

وبالرغم من أن ابن سينا عالة على السابقين فى أغلب آرائه المتعلقة بالنفس وأحوالها فانه قدر لهذه الآراء نجاح عظيم فى القرون الوسطى ولدى بعض رجال التاريخ الحديث ، فكانت عماد علم النفس جميعه فى العالم العربى منذ القرن العاشر الميلادى إلى أخريات القرن التاسع عشر ؛ وخلفت آثاراً واضحة فى الفلسفة المدرسية اليهودية والمسيحية ؛ واتصلت بنسب إلى بعض ما جاء به ديكارت فى حقيقة النفس ووجودها . وقد عرف لها الباحثون المحدثون هذه المنزلة فسارعوا إلى دراستها وجمع مصادرها وبيان أثرها فى المدارس الغربية . وربما يكون البادرون كارادى فومن أول من لخصوها وحاولوا إعطاء فكرة عنها . فقد عقد لعلم النفس السينوى (نسبة إلى ابن سينا) فصلا فى كتابه المسمى : Avicenne (١) . ثم جاء الدكتور صليبا أخيراً فتوسع فى هذا الموضوع قليلا فى رسالته التى تقدم بها إلى السربون للحصول على الدكتوراه (٢) . أما من اشتركوا فى نشر مؤلفات ابن سينا السيكلوجية فيجب أن نشير أولا إلى الدكتور صمويل لاندار الذى نشر رسالة القوى النفسية المهداة إلى نوح بن منصور السامانى سنة ١٨٧٥ ؛ وقد وفق فى عمله هذا كل التوفيق وأحاطه بوسائل الدقة والبحث العلمى الصحيح (٣) فاعتمد على أصول عربية وعبرية ولاتينية ليختار النص المناسب والتعبير المقبول ؛ ولم يفته أن يرجع إلى المصادر اليونانية رجاء أن يوضح بها بعض عبارات ابن سينا . وعلى ضوء مجهوده العظيم استطاع فنديك بعد ذلك بنحو ٣٠ سنة أن يعيد نشر هذه الرسالة مرة أخرى مع ترجمة انجليزية دقيقة (٤) وفى العام الماضى نشر ثابت أفندى الفندى أحد خريجى كلية الآداب ومبعوثها الآن فى باريس رسالة أخرى فى معرفة النفس الناطقة وأحوالها . ويظهر أن أثر أفكار ابن سينا السيكلوجية فى المدارس المسيحية قد شغل الباحثين ومؤرخى الفلسفة من قديم . فى النصف الثانى من القرن الفائت نرى هانيبرج يدرس نظرية المعرفة لدى ابن سينا والبير لجراند (٥) . وفى أوائل القرن العشرين كتب فنتر فى إحدى صحف مونيخ العلمية مقالا طويلا عن الجزء السادس من طبيعيات الشفاء المترجم إلى اللاتينية ، وهذا الجزء هو الذى يدرس فيه ابن سينا النفس وقواها (٦) وفى سنة ١٩٢٩ وفى المسيو جلسن مؤرخ الفلسفة المدرسية المسيحية وأستاذها فى « كوليج دى فرانس » هذا الموضوع حقه من البحث ، وبين أثر ابن سينا فى هذا المضمار بما لا يدع مجالا للشك (٧) وفى اختصار يمكننا أن نقول إن علم النفس عند ابن سينا

(١) ابن سينا ، (القانون) ، حـ ١ ص ٣٥ .

(٢) De Boer, (Encyce. of Ethies), Soul.

(١) Carra de Vaux, (Avicenne), P. 207-238.

(٢) Saliba,(Etude sur lo métaphysique d'Avicenne), Paris, 1926, P. 185 et suiv.

(3) S Landauer, (Die Psycholo, gie des Ibu Sinâ), Z. D. M. G. 1896.

(٢) (مبحث عن القوى النفسية) ، نشر فنديك ، القاهرة ١٣٢٥ هـ

(4) B. Haneberg, (Zur Erkenntnislehre von In Sinâ und Albertus), München, 1866.

(9) M. Winter, (Uber Avicennas opus egregium de Anima, Munchen, 1903.

(7) Er. Gilson, (Archives d'his). r- IV 1929, P. 38-74.